قصة القمر العاشق

للأستاذ علي محمود طه
الأديب محمد سيد الكيلاني

هي قصة بارعة في قصيدة رائعة عدتها اثنان وثلاثون بيتاً ، ومع هذا ، فإنها تقع في أربعة فصول تمثل لنا العشق في صورة مستحدثة ، وتعطينا لوناً لا عهد لنا به من ألوان الموسيقى . وهذه القصة واضحة المعاني ، بينة المرامي ، بالرغم مما فيها من رموز وإشارات . وهي مفعمة بالشذوذ ، ولكنها مع هذا كله مما يستقيم به منطق الشعراء الواقعيين

يتحدث الشاعر في قصيدته عن « قصة قمر عاشق » يهوى الصبايا الحور ، ويقتحم عليهن الخدور . ولقد تواضع الشعراء من قبل على أن يجعلوا من القمر معشوقاً جميلاً رقيقاً فاتن السمات ، بديع القسمات ، فشبهوا به وجه الحبيب ، وفي ذلك يقول قائلهم وهو يخاطب الليل :

لو كان عندي قمر ما بت أرعى قمرا

ولكن شاعرنا المهندس خرج على هذا الإجماع ، فجعل من هذا المعشوق الوادع الرقيق عاشقاً سابياً وعربيداً فاتكا ، فأسبغ عليه من صفات الرخاوة حيناً ، والضراوة حيناً آخر ، ما جعل قصيدته قمينة بالنظر ، حرية بالاستقراء ، جديرة بتأمل كل حسناء كأنما يوجه إليها الشاعر قصيدته ، كيلا يستخفها هذا الضوء الرطب المنحدر من قمر الليالي الصائفة ، فيلهيها عن نافذتها المفتوحة . قال مخاطباً هذه الغادة :

إذا ما طاف بالشرفة ضوء القمر المضنى
ورف عليك مثل الحلم أو إشراقة المعنى

فهنا شرفة يطوف حولها ضوء القمر متعباً من طول ما قطع من مسافة إليها . وهذا الضوء لطيف عذب كالحلم ، مشرق كالمعنى المتوقد في خاطر الشاعر ، يرف على زنبقة نائمة في مهدها ، وقد انحصرت غلالتها الرقيقة عن بعض جسمها . قال وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى :

فضمي جسمك العاري وصوني ذلك الحسنا

وفي هذا النداء الأخير تتجلى عبادة الشاعر للجمال وتقديسه له، فهو يرثي لهذا الجسم الفاتن أن يكون نهب هذا الضوء المفتون ، أو بمعنى آخر نهب الأعين الشرهة الجارحة ، فالشاعر ينصح صاحبته الحسناء أن تضم جسمها العاري وأن تستره حتى يبقى حسنها مصوناً . فنظرة شاعرنا المهندس إلى المرأة وجمالها في هذين البيتين نظرة فنية روحية في حين أن شاعراً كاسماعيل صبري كان ينظر إلى الجمال نظرته إلى المتعة المبذولة . قال :

إن هذا الحسن كالماء الذي فيه للأنفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده دون بعض واعدلي بين الظماء

فنظرة علي محمود طه إلى الجمال أسمى وأنبل . وهي على أنها نظرة شاعرية متخيلة إلا أنها واقعية مستمدة من صميم الحياة وطبائع الأشياء . أما نظرة إسماعيل صبري فهي ساذجة أو تكاد إنها تنافي منطق الحياة وتجافي طبائع الأشياء . إن هذه المرأة التي يطلب منها اسماعيل صبري أن تجعل من حسنها مورداً لكل ظمآن ومتعة لكل إنسان وأن تعدل بين الظماء فلا تزيد في كأس هذا قطرة عما في كأس ذاك لم تخلق بعد . وهي كما يصورها اسماعيل صبري ليست من بني البشر ، إنما هي آلة مصنوعة توزع الطعام والشراب بالدرهم والمثقال . هذا هو التمهيد الذي قدمه الشاعر لقصته .

أما الفصل الأول فهو هذا الضوء الذي نظر من خلال السحاب فرأى هذه الفتاة النائمة وقد تعرى بعض جسمها ففتنه جمالها فهبط من عليائه إلى أرض حديقتها ، ثم نظر فإذا هي نائمة في فراشها تحت نافذتها . وهنا يمثل الضوء دوراً تاريخياً من أدوار العشق والغرام التي قام بها روميو ، فيسترق الضوء الخطا حتى يصل إلى هذه النافذة فيراها عالية فيتسلق إليها الأغصان لا يبالي بأشواكها حتى يصل إلى فاتنته . قال الشاعر :

ومس الأرض في رفق يشق رياضها الغنا
عجبت له وما أعجب كيف استلم الركنا ؟
وكيف تسور الشوك وكيف تسور الغصنا ؟

والفصل الثاني حين يقف الضوء في مخدع الحسناء فيرى في خديها خمر صبابة . ولقد ألفنا الشعراء يصفون خدود الملاح بالتفاح ولكن علي محمود طه عمد إلى وصف ما ينبثق من الخدود من سحر وجمال بخمر صبابة لا ينضب معينها . قال :

على خديك خمر صبابة أفرغهما دنا

(البقية على صفحة ١٦٦٢)